

تفسير قوله: **وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاصِرَةً الْبَحْرِ**

{ واسألهم عن القرية التي كانت حاصرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شررا ويوم لا يسئون لا تأتيهم كذلك بل لوهم بما كانوا يفسفون } . { واسألهم عن القرية التي كانت حاصرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شررا ويوم لا يسئون لا تأتيهم كذلك بل لوهم بما كانوا يفسفون } . قصة هذه القرية كان يخفيها اليهود لأنها سبة عليهم . وإخبار النبي صلى الله عليه وسلم لهم بها ، وسؤالهم عنها مع أنه نبي أمي من معجزاته وأدلة نبوته؛ لأنه ما علمها إلا عن طريق الوحي . وسنذكرها ملخصة موجزة ثم نذكرها مفصلة في الآيات التي شرحتها . وقد ألمنا بهذه القصة في هذه الدروس في سورة البقرة في الكلام على قوله: { وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَلَمَّا لَأْتُوا فَكَلَّمْتُمْ عَنْ آبَائِكُمْ يَوْمَ السَّبْتِ فَقَالُوا لَوْلَا تُنذِرُونَا إِنَّنَا لَكُنَّا عَسَافًا نَجْمُونَ } . فأيات سورة الأعراف هنا بسط وشرح لقوله في البقرة: { وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَلَمَّا لَأْتُوا فَكَلَّمْتُمْ عَنْ آبَائِكُمْ يَوْمَ السَّبْتِ فَقَالُوا لَوْلَا تُنذِرُونَا إِنَّنَا لَكُنَّا عَسَافًا نَجْمُونَ } . وفي العنقبة على ذلك الشاطئ بين الطور ومدين . وأنها في زمن داود عليه السلام ، كان محرما عليهم الاصطيد في السبت كما تقدم في قوله: { لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ } كان محرما عليهم صيد السمك يوم السبت ، وكان يشتد قرمهم إلى لحم السمك والقرم بفتحتن شهوة اللحم . وكان الله إفتنتهم فتنه؛ كان إذا كان يوم السبت جاءهم السمك على وجه البحر أفواجا أفواجا كالكبش البيض حتى يتمكن كل إنسان من أخذ ما شاء منه في أحسن حال وأسمنها ، فإذا غربت شمس يوم السبت تمنع في البحر؛ فلا يقدر على وجه البحر أفواجا أفواجا كالكبش البيض حتى يتمكن كل إنسان من أخذ ما شاء منه . ثم بعد ذلك اشتدت شهوتهم إلى اللحم؛ فصاروا يحتالون على السمك يوم الجمعة مثلا: فيجرون في الماء أخاديد يسيل فيها الماء ، فإذا انتهت حفروا حفرا عميقة ، فإذا جاء الحوت مع تلك الأخاديد المائية نزل في الحفرة؛ فلا يقدر على الرجوع فأخذه يوم السبت . وكان بعضهم فيما يقولون: يجعل في ذنب الحوت خيطا وبدق ويتدا على الشاطئ ، ويمسك رأس الخيط فيه فيبقى الحوت في الماء ممسكا بالخيط ، فإذا غربت شمس يوم السبت جاء وأخذه . فلما فعلوا هذه الحيل ولم يعالجهم العذاب كأنهم تجرأوا وتشجعوا ، وقالوا: لعل حرمة صيد السمك رفعها الله؛ لأنه لم يفعل بنا بأسا . فلم يزالوا يتدرجون وطائفة نهتهم عنه { قالوا مَعْدِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَسْفُونَ } وطائفة قالوا للذين نهتهم: { لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا } . والله بين أن الذين اعتدوا في السبت عذبهم عذابا بنسبا وهو مسخهم قرده وقيل بعضهم خنازير كما يأتي تفصيله كما ذكرهم في قوله: { فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ } وفي قوله: { وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا كَانُوا يَعْسِفُونَ } . والطائفة الذين نهت أنجاهم الله كما ذكره في قوله: { اتَّخَبْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ } وبغية الطائفة التي قالت: { لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا } . ذكروا عن عكرمة أنه كان يقول: إن ابن عباس ما كان يدري هل نجوا أو هلكوا؛ حتى أقنع عكرمة بأنهم نجوا فكساه حلة . ومن أظهر الأدلة في أنهم نجوا قوله تعالى: { وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَلَمَّا لَأْتُوا فَكَلَّمْتُمْ عَنْ آبَائِكُمْ يَوْمَ السَّبْتِ فَقَالُوا لَوْلَا تُنذِرُونَا إِنَّنَا لَكُنَّا عَسَافًا نَجْمُونَ } . وذكرنا ، وهذا معنى قوله: { واسألهم عن القرية التي كانت حاصرة البحر } ومعناها مبنية على شاطئه في حضرته قريبا منه . وهي على ما يقوله أكثر المفسرين قرية تسمى أبله ؛ خلافا لمن زعم أنها مدين ومن زعم أنها طبرية ومن زعم أنها تسمى معنا ومن زعم أنها تسمى مقنى فكل هذا إسرائيلييات ، ولكن أكثر الأخبار والروايات أنها أبله ؛ كما ذكرنا . وهذا معنى قوله: { واسألهم عن القرية التي كانت حاصرة البحر إذ يعدون في السبت } أسألهم عنهم حين يعدون في السبت { يعدون } معناه يجاوزون حدود الله ويتهكون أوامرهم باصطيد السمك يوم السبت { إذ تأتيهم } حين تأتيهم { حيتانهم } الحيتان جمع حوت وبأوه مبدلة من واو؛ لأن أصل الحوت ثلاثي واوي العين زيدت في جمعه الألف والنون وأبدلت الواو ياء لسكونها بعد كسرة كما في الميزان من الوزن والميعاد من الودع والميعات من الوقت . والحيتان بأوه مبدلة من واو جمع حوت { تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم } السبت مصدر سبت اليهود سبتا إذا عظموا يوم السبت للانقطاع للعبادة فيه وترك صيد السمك؛ وهذا معنى قوله: { إذ تأتيهم حيتانهم شررا } { شررا } جمع شرار قال بعض العلماء: تأتيهم مقبلة؛ تأتيهم الحيتان مقبلة ظاهرة على وجه الماء كأنها صفوف كثيرة؛ حتى تستر وجه الماء من كثرتها؛ فالشرار على هذا بمعنى الظاهرة المقبلة على وجه الماء . والعرب تقول شرعت علي فلان فوجده يفعل كذا معناه أقبلت عليه حتى قربت منه فوجده يفعل كذا { ويوم لا يسئون } أي يوم لا يعظمون السبت لأنه يوم آخر من أيام الأسبوع لا تأتيهم؛ فتنه لهم وامتحانا { كذلك بل لوهم } كذلك البلاء العظيم { بل لوهم بما كانوا يفسفون } { بل لوهم } معناه نخبثهم بسبب كونهم فاسقين؛ فقد ابتلوا بالطمع ولم ينجحوا . وقد ابتلوا بالخوف ولم ينجحوا؛ لأن ابتلاء الذي يميز ذهب الرجال من زائفهم هو الطمع والخوف فإن المحن الذي يظهر بها ذهب الرجال ويطهرهم إنما هي محن الخوف والطمع . وقد ابتلى الله أمة موسى بالخوف والطمع وابتلى أمة محمد بالخوف والطمع؛ فنجح أمة محمد ولم تنجح أمة موسى؛ لأن الطمع الذي ابتلى الله به بني إسرائيل هو هذه القرية التي ذكرنا . وسبأتي أنهم اصطادوا السمك في السبت فمسخوا قرده كما يأتي في قوله: { فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ } -والعباد بالله-؛ لأنهم لم يصمدوا أمام الإطمع ولم يقو بشكائهم أمام الطمع؛ بل ذابوا واماغوا أمام طمع شهوة اللحم . وكذلك لما ابتلاهم بالخوف في جهاد الجبارين وقال لهم: { ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا علي أدباركم فيتنقلبوا خاسرين } فجنبوا ولم يشجعوا قال تعالى عنهم أنهم قالوا: { إِنْ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا } وقد قالوا لنبيهم: { قَادَهُمْ أَتَتْ وَرَبُّكَ قَاتِلًا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } فلم يثبتوا أمام عواصف الطمع ولم يثبتوا أمام عواصف الخوف؛ بخلاف هذه الأمة الكريمة أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ فقد ابتلاهم بالطمع في نفس الصيد وذلك في غزوة الحديبية في ذي القعدة من عام ست . ابتلاهم الله وهم في سفر وائمة فرم أحدى شهوة إلى اللحم فسلم بأن يسر لهم جميع أنواع الصيد وهم محرمون كبير الصيد وصغيره من أنواع الوحوش والطيور وغير ذلك؛ فلم يمد رجل منهم يده إلى شيء من ذلك فنجحوا ولم ترزعهم عواصف الطمع بل ثبتوا أمامه ثبوت الرجال . وهذا قد تقدم في قوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَتْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بَشِيرًا مِنَ الصَّيِّتَاتِ تَالَهُ أُنْبِيَاكُمْ وَرَمَّاكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ يَخَافُهُ بِالْقَيْبِ فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ قَلَةً عَدَّابٌ أَلِيمٌ } ؛ فثبتوا ولم ترزعهم عواصف الطمع . وكذلك ابتلاهم بالخوف لما سافر النبي صلى الله عليه وسلم سفره في غزوة بدر الكبرى -كما سبأتي تفصيله في سورة الأنفال إن شاء الله تعالى- وقد خرج لأجل غير في ثلاثمائة رجل وثلاثة عشر رجلا يريدون غيرا ليأخذوها فجاءهم جيش عرمرم نفير مسلح . فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم بالجيش وذكر أمرهم لقومه وهو أمر مخيف؛ لأنه جيش عظيم في عدده وعدده وهم فليون كما قال تعالى: { وَلَقَدْ تَمَرَّدَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَإِنَّكُمْ إِذْ لَمُمْ بِهِ عَسَافًا } هم قليل عددهم وعددهم بالنسبة إلى عدوهم . فلما عرض ذلك عليهم قال له المقداد بن عمرو -المعروف بالمقداد بن الأسود من بني بهراء من قبائل اليمن حليف قريش- قال له: والله لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا من دونه معك ولو خضت بنا البحر لخصنا . ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى فلما أعاد الكلام قال له سعد بن معاذ رضي الله عنه وأرضاه: كأنك تعنينا معشر الأنصار؟ قال: نعم -لأن الأنصار اشتروا عليه ليلة العقبة أنه يحمونه مما يحمون منه أبناءهم ونساءهم في نفس المدينة ولم يشترطوا له الخارج عن بلادهم ، فكان صلى الله عليه وسلم يتخوف ألا يكونوا معه في الخارج عن ديارهم - . فلما قال له سعد بن معاذ رضي الله عنه: كأنك تعنينا معشر الأنصار؟ قال له: نعم . قال كلامه المعروف المشهور في المغازي والتاريخ العظيم الدال على عظيم الثبات الذي يقول فيه: والله إنا لقوم صبر في الحرب صدق عند اللقاء، فوالله ما نكره أن تلقى بنا عدوك حتى ترضى منا ما يقر عينك، والله لقد تخلف عنك بالمدينة أقوام لو علموا أنك تلقى كيدا ما تخلف عنك منهم أحد ، ونحو هذا من الكلام . فثبتوا وصددوا عند هذا الخوف العظيم ، وثبتوا أمام هذا الطمع العظيم بخلاف الإسرائيليين كما بينا . وكما جاء هنا في الأعراف من سقوطهم أمام الطمع ، وكما قدمنا في سورة المائدة من سقوطهم أمام الخوف . هذا معنى قوله: { إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شررا ويوم لا يسئون لا تأتيهم كذلك بل لوهم بما كانوا يفسفون } البلاء معناه الاختبار وهو يقع بالخير والشر؛ كما قال: { وَتَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّبِيَّاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } ولم ينجحوا في هذا البلاء إلا الذين عصمهم الله جل وعلا . ونرجو الله جل وعلا ألا يزيغنا الطمع ولا الخوف عن طاعته تعالى اللهم ثبتنا أمام كل زعازع ولا تردنا عما برضيك اللهم لا تجعل الطمع سبب ضلالتنا ولا تجعل الخوف سبب ضلالتنا واهدنا ووفقنا { رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسْبَةٌ وَفِي الآخِرَةِ حَسْبَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } { رَبَّنَا اغْنِنَّا لِمَا دُونُنَا وَأَسْرِتْنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } { رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْنِنَا لِمَا دُونُنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا نَحْرَتَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ } .